التنظيمات الاجتماعية في المغرب القديم

2 – الأســـــــــــــــــــــــــــرة

تعتبر العائمة المغاربية النواة الأساسية في تكوين مجتمع تكوين مجتمع مترابط و متكامل مبني على أسس متينة ، ويعرف عن العائلة في المغرب القديم أنها أغناطية (Agnatique أبويةPatrical ، ممتدة لتشمل الأجيال الثلاثة الجد ، الآباء، الأبناء كالأحفاد، يتحكم فيها الأكبر سنا، و ما يؤكد أبوسية العائلة النصوص الأثرية المتوفرة في المنطقة و المتمثلة في أسماء الأعلام ،التي لا نعثر فيها على تلك التي تدل نسب الأفراد إلى الأم ، فما عثر عليه في نوميديا (معبد الحفرة بقسنطينة) من نصوص أثرية يعود فيها نسب أولئك الأفراد إلى ناحية الأب ، لكن هذا لا ينقص من شدة الاعتزاز الذي يكنه المغاربة للأم ، بحيث تذكر المصادر أن ماسينيسا كان دائما يسترشد بوالدته التي تجيد العرافة، لكن المصادر تكتمت عن ذكر اسم والدة العاهل النوميدي الذي كان نسبه يعود إلى الجد الأول زلالسن، و هذا الاستقرار في شكل العائلة نجده في المناطق الشمالية منذ قرون عديدة ، أما في الجنوب و نتيجة لاحتكاك القبائل الشرقية بالمجموعات الزنجية في الصحراء نجد انتشار شكل العائلة الأموسية بين المجتمع التارقي (حسب Gsellاستيفان جزال) و الذي لا تزال خصائصه مستمرة.

لقد عرف المغاربة القدماء نوعين من الأسر، الأولى هي الأسرة النووية التي نتجت عن الزواج الأحادي والتي تتكون من الأب وامرأة واحدة والأبناء، أما النوع الثاني فيتمثّل في الأسرة المختلطة التي تنشأ عبر الزواج المختلط (أكثر من زوجة) والذي انتشر بين الطبقة الثرية الحاكمة، بحيث تتعدد الزوجات لرجل واحد، فتكون له زوجة رئيسية أو عدة زوجات رئيسيات وعدد كبير من الإماء.

لقد كان أفراد العائلة المغاربية يعيشون مع بعضهم متضامنين، يضمهم مسكن واحد، تسوده الأعراف والتقاليد، القوانين وأسس التربية، التي تكون البداية الأولى لتشكلها رابط مشروع هو الزواج.

- الـــــــــــــــزواج:

يعتبر الزواج وتكوين الأسرة من التقاليد القديمة في المغرب القديم ، حيث كان الزواج يبنى على الرجل و المرأة ، و هو ما يعرف في المفهوم السوسيولوجي بالزواج المختلط، و هو نوع من الزواج السائد بين هذه القبائل، و لا توجد روابط أخرى خارج إطار العلاقة المشروعة التي يقرها المعبد أو قانون القبيلة من حيث الأعراف و التقليد المتبعة في إتمام مراسيم الزواج، الذي يكون عادة في سن مبكرة، حيث تكون العروس في سن ما بين ثلاثة عشر أو أربعة عشر ، أما العريس ما بين ستة عشر و سبعة عشر سنة، و من شروط صحته يشترط في المرأة العذرية، حيث يذكر هيرودوت أن فتيات من قبيلة الأديرماخيد يحافظن على عذريتهن حتى الزواج، (Gsell ; Herodote, n.1, P. 13) كما أشاد أبوليوس

المادوري بهذه الفضيلة لدى المرأة و مدخ الفتاة العذراء بقوله: " ... العذراء الحسناء حتى لو كانت في منتهى الفقر تحتاج إلى مهر وافر و تحمل لا محالة إلى زوجها براءة سجيتها و زهرة شبابها، و البكارة ميزة قيّمة يمتلكها كل الأزواج، كما هو مشروع و موافق للعرف، فما تتلقى من شيء مهرا تستطيع متى شاءت و كي لا تظل مرتهنا أن ترده كاملا مثلما استلمته... البكارة وحدها يتعذّر إعادتها إذا تسلمتها من بين كل مقومات المهر تلقى عند الزوج إلى الأبد" (مها عيساوي ، المجتمع اللوبي...ص. 415).

كما يشترط في الزوجة أن تكون مخلصة ووفية ، و خاضعة لزوجها، و يتم عقد قران الزواج بعد اتفاق علني بين والدي الزوجين بحضور شهود لتزف بعدها الفتاة إلى منزل العريس، ووفقا لطقوس محلية ، لتصبح تابعة لزوجها ، ويتوجب عليها أن تصون زوجها في عرضه و شرفه و أن تتحلى بالقيم النبيلة بحيث هي التي تعكس صورة زوجها أمام سكان القبيلة ، فارتكاب الخيانة يعد جريمة في نظر المغاربة القدماء و عقوبته إن ثبتت هي الإعدام (Gsell, H.A.A.N, T.5, P.43) و ذلك لما تسببه من تشتيت للنسب ، كما يمقت المغاربة القدماء الإجهاض ، و رغم قلة إشارة المصادر إلى هذه الظاهرة فإن ترتيليانوس أورد نصا يشير إلى هذه الجريمة التي كانت ممارستها منتشرة عند الأوساط المترومنة إذ يقول : " ... عندنا قتل النفس محرم إلى الأبد فلا يحل لنا إسقاط الجنين من رحم أمه... " (مها عيساوي ، المجتمع اللوبي...ص. 416).

- تعـــــــــــــــــــــدد الزوجات:

لم يعرف المجتمع المغاربي المحلي عنوسة مرتفعة و هذا و هذا راجع لانتشار الزواج، أما المطلقات فغالبا ما يعاودن الارتباط، بحيث أن ظاهرة تعدد الزوجات كانت شائعة بينهم منذ القدم، و هذا ما دلت عليه المصادر المصرية التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، و التي ترسم لنا صورة 12 زوجة لأحد زعماء قبيلة الريبو التي وقعت أسيرة لدى الفراعنة، و من المصادر الأدبية التي جمعها غزال Gsell و الذي يؤكد انطلاقا منها أن هذه الظاهرة كانت شائعة في الفترة الممتدة ما بين القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن السادس للميلاد لدى فئة معينة من المجتمع إذ كانت حكرا على كبار القوم و السياسيين.

(Gsell, H.A.A.N, T.5,P.45,)عقون العربي ، الاقتصاد والمجتمع، ص. 172)

التبـــــــــــــــــــــــني:

" ... يوغرطة كنت طفلا صغيرا يتيما بلا مال عندما دعوتك إلى وراثة العرش، و في رأيي هذا الاحسان يكسبني من جهتك محبة تساوي محبة أبنائي لي ... و ـالف اسم عائلتنا بإسبانيا ... طالبا منك إحاطة هذين الطفلين بعطفك، فهما ابنا عمك من حيث الولادة و أخواك بفضل إحساني إليك ... يا يوغرطة أكبر أبنائي سنا و حكمة ... فأما أنتما يا أذربعل و هيمبسال فعليكما احترام هذا الرجل ... حتى لا يقال أنني أثرت إبني بالتبني على ولداي من صلبي" (سالوستيوس، حرب يوغرطة، XVIII)

تعتبر هذه الحالة الأولى التي ذكرتها المصادر القديمة سواء الأدبية أو الأثرية حول ظاهرة التبني عند المغاربة و التي لم يتّفق حولها المؤرخون، لعدم وجود أدلة أو أمثلة مشابهة تدعمها.

فهناك من اقترح أن مكيبسا تبنى يوغرطة ابن أخيه نزولا عند رغبة سكيبيو ايميليانوس و ذلك عند عودته من نوماس بإسبانيا في 134 ق. م ، و طرف آخر يقترح أن التبني وقع عندما اشتد المرض على مكيبسا في عام 121 ق. م ، و على العموم لم يكن هذا التبني اجتماعيا بل كان لدوافع سياسية محضة، و لم يخرج عن نطاق أقرب الأقربين (ابن الأخ)، فهذه الظاهرة مستبعد حدوثها في المجتمع المغاربي في نظر الباحثين، فما هو سائد في أوساطه هو التكافل الاجتماعي، حيث تنص التقاليد إلى حد اليوم على اعتبار أبناء الأخ كالأبناء من الصلب ، لكن مهما كانت درجة التكفل بهم و التعاطف معهم لا تتحوّل إلى التبني بالمعنى الحقيقي، أما فيما يتعلّق بالرواية التي ذكرتها المصادر العربية حول تبني الكاهنة لعربي ضمن جيش حسان بن النعمان و الذي أرضعته ليكون شقيقا لأبنائها بالرضاعة،(حارش: ممككة نوميديا، 98) فيرى فيها الأستاذ عقون أنها قصة موضوعة لا مصداقية لها.(عقون م ع : الاقتصاد و المجتمع، 173)

- مـــــــــــــــــــــكانة المرأة:

كانت المرأة تحتل مكانة هامة في المجتمع المغاربي القديم ، فهي ذات دور فعّال في أسرة و قبيلة تتفرّع منها أمة مبنية على أسس سليمة و قوية، فقد كانت المرأة المغاربية ذات ملامح جميلة ، تتحمّل المسؤولية و أعباء الحياة في سن مبكرة، حيث كانت مهامها تنقسم بين تربية الأبناء و القيام بالواجبات المنزلية ، كممارسة مهن و حرف يدوية ، زيادة على أنها تتقاسم مع الرجل بعض الأعمال بمساعدته في مختلف النشاطات ، خاصة منها النشاط الزراعي.(مها عيساوي، المجتمع اللوبي ... ص ص. 276 – 277)

يسرد لنا ديودور الصقلي أن نساء مغاربيات محاربات يذهبن لخوض المعارك ، و الرجال ينوبون عنهن في المنزل لإدارة أشغاله، (Diodore de Sicile, His. Rom. III, 52)تبدو هذه الرواية أقرب إلى الأسطورة من الواقع، لاكن لا يهمنا هنا صدقها من عدمه بقدر ما يهمنا مغزاها ، فهي تبرز لنا الموقف البطولي للمرأة المغاربية ، فالتاريخ يذكر لنا عدة شخصيات وطنية من النساء، كانت لديهن المروءة و الشجاعة لقيادة مقاومات مسلحة ، لعل أبرزهن الكاهنة التي قادت حربا شرسة دفاعا عن ممتلكاتها ، و قبلها سيريا أخت فيرموس التي شاركت أخاها في أعماله الحربية.